ان رواية سرفانتس العظيمة هي ، من حيث الجوهر ، حوار مستمر بين الفارس وتابعه . فمن دون دون كيشوت لامعنى لسانشو بانسا ومن دون سانشو لامعنى لدون كيشوت وتبادل الآراء ضروري بالنسبة الى كليهما ضرورة حيوية لأنه يؤدي الى اغتنائهما معا والى التوحيد المنسجم بين البدايتين : الفكر الانساني السامي والحكمة الشعبية المعافاة . ان تبادل الآراء بين البطلين واسع يشمل جميع المسائل الملحة في ذلك العصر وهو كثيرا مايتصف (لاسيما في الجزء الثاني) بطابع معر ساطع . ومما يساعد على تشديد تأثير الرواية النقدي انتقاء مكان الأحداث ، اذ تجري جميعها تقريبا في قرية من أشد قرى الريف الاسباني فقراً في لامانشا بتلالها المقفرة وطواحينها ودروبها ونزولها وبين ساكنيها الجاهلين الطيبين التعساء ذوي الذكاء الفطري .

ان بطلي سرفانتس لايفترقان الا مؤقتا أثناء وجودهما في قصر الاقطاعي حيث يصبحان موضع سخرية حاشيته وأذنابه . غير أن هذا الافتراق يبرهن على متانة الصداقة التي تربطهما وعلى خصوبة الاتحاد الذي يمثلونه . ان سانشو بانسا الذي يصدق عملية تنصيبه حاكما يظهر همة ادارية عالية . وتلك الفصول من الجزء الثاني التي تروي حكاية حكم سانشو ونصائح دون كيشوت الحكيمة الى تابعه قبل توجهه لتسلم منصبه في الجزيرة ، ليست سوى نقد حاد للظلم الاجتماعي ولنظام الحكم المشوه في اسبانيا ، ذلك الظلم وذلك النظام اللذين عانى منهما سرفانتس نفسه . وسرعان مايقتنع الفارس بعدم جدوى البقاء في بلاط الأمير ويتخلى سانشو بانسا عن الحكم ويلتقي الاثنان ليرحلا عن القصر . وهنا ينشد الكاتب على لسان دون كيشوت نشيد الحرية ، نشيد انتصار البطلين على العالم المحيط بهما ، عالم الجشع والتطفل وحب الذات والتفاهة الروحية ، والقسوة ، ذلك العالم الذي لاتقتصر حدوده على قصر الأمير وسكانه الذين يثيرون القرف ، بل يشمل واقع اسبانيا في القرن السابع عشر كله .

ان رواية سرفانتس الخالدة ليست عزيزة على قلوبنا بسبب اكتمال صورتي دون كيشوت وسانشو بانسا فنيا ، أوبسبب كونها كتلا من الأفكار والدم والدموع مصاغة في صور فنية مذهلة فحسب ، بل لأنها أيضاًتنطوي بالنسبة الينا ،نحن أبناء العصر الراهن، على أفكار لم يخب بريقها ولم تندثر ولن تندثر قيمتها . انك وانت تقرأ دون كيشوت تدهش رغما عنك من التقارب بين أفكار عصرنا الأساسية وافكار سرفانتس حول الدفاع عن الضعفاء والمضطهدين باعتباره واجب الانسان المقدس ، وحول العصر الذهبي « حيث الناس لم يكونوا يعرفون